

لغة القرآن بين الحقيقة والمجاز من منظور السيد جعفر العاملي

الباحثة حميدة حنظل شخير الشامي

أ.د. حامد ناصر الظالمي

جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:

يمثل القرآن معجزة الرسول الخالدة، فهو معجز من مستويات متعددة، من هذه المستويات الإعجاز اللغوي، الذي عجز العرب عن مجاراته، وهم أصحاب البلاغة والبيان. وفي بحثنا هذا نحاول تسليط الضوء على لغة القرآن من منظور السيد العاملي، وكيف فسر هذا العالم الجليل تلك اللغة، وما فيها من دلالات، وكيف خاطب الله الإنسان من واقع حياته بعيداً عن النظريات الفلسفية والرياضية، وكيف اختلفت الحان الخطاب باختلاف المخاطب أو المقام.

لغة القرآن : بين الحقيقة والمجاز وفنون البلاغة وتلون لحن الخطاب : نزل القرآن بلغة العرب تلك اللغة التي شغف بها كل من شعر بجمالها وروعيتها وغناها وسعة قدرتها على التعبير، فلا تضيق بك الكلمات، ولا تحاصرک المصطلحات وأنت تعبر عن صورة تجول بداخلك أو قضية أمنت بها. نزل بها القرآن، وبها سطر أروع الصور القرآنية في جوانب متعددة فكانت ثرية التعبير عن: أحكام الدين، أحكام الشريعة، قصص القرآن، الأمثال القرآنية، حقيقة الدنيا مضافة إليها حقيقة الآخرة ، وغير ذلك. فلا عجب أن تجد من لديه حس فكري، وفني، وجمالي أن يقف عندها مادحاً لها، مفسراً لمعانيها ، مبيناً فضلها في إعطاء المعاني مداها الأوسع الرحب. والسيد العاملي إثناء انتقاله من تفسير سورة الى سورة أخرى كانت لديه محطات جميلة ورائعة وقف مع هذه اللغة يعبر عن رأيه بلغة العرب بشكل عام، ولغة

القران بشكل خاص، تلك اللغة التي تعددت فيها الحان الخطاب فلحن الخطاب مع عامة الناس يختلف عنه مع الأنبياء، ولحن الخطاب مع المؤمنين لا جرم إنه مختلف عن خطاب الكافرين والملحددين، فمن محطات العاملي التي وقف عندها متحدثاً عن هذه اللغة الجميلة الثرية :-

الأولى: لغة القرآن لغة الحياة اليومية : استعمل القرآن في التعبير عن العقائد لغة الحياة البعيدة عن المصطلحات الفلسفية، والمنطقية فقد ربط بين هذه العقائد وبين الحياة العملية للإنسان المتجسدة بالمعرفة الوجدانية الملموسة والواقعية ، وبالتطبيق العملي والشعور المباشر والعميق ، الناشئ من إحساس الإنسان بالنعمة التي تستلزم معرفة المنعم، والمحسن بدرجة من درجات المعرفة، وليس عن طريق معادلات رياضية، أو عقلية فلسفية جامدة جافة، أو بطرق نظرية تجريدية ، إنما القرآن اعتمد النظرية والتطبيق . ما تقدم ذكره هو رأي السيد العاملي في لغة القرآن الكريم في العقائد عندما كتب عنوان: (لغة القرآن في الترية العقائدية) قال فيه:

((إن الله سبحانه في قرآنه الكريم لم يتكلم عن التوحيد، وعن الله ، وعن الآخرة، وعن سائر الاعتقادات بمصطلحات فلسفية مقتبسة من علم المنطق أو غيره، وإنما دخل إلى الأمور الاعتقادية من باب لغة الحياة، حيث ربطها بصورة مباشرة بالشأن الحياتي العملي المتجسد والملموس، والشعور المباشر والعميق. ولتخذ موقعها القيادي والمحرك في هذا القلب))^(١).

ثم ساق السيد العاملي شواهد من القرآن الكريم كدليل لما قاله، نحو قوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءَ أَفْلا تَسْمَعُونَ } {القصص: ٧١} ، وقوله: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ } {القصص: ٧٢} وقوله: { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {القصص: ٧٣} . يقول العاملي في هذه

الآيات: ((تحدث الله عن التوحيد، وربطة بالليل، من موقع كونه سكتاً لهم، ثم ربطه بالنهار، من موقع كونه مناسباً للابتغاء من فضل الله سبحانه ثم ربط كلا الأمرين بالرحمة الغامرة، التي تعمل على توفير الأجواء الحياتية الملائمة للسعي نحو التكامل باستمرار))^(٢). ثم أضاف قائلاً: ((فالله سبحانه قد تحدث إذن عن التوحيد بما له مساس بواقع الإنسان الذي يعيشه ويحس به، ويتفاعل معه بمشاعره، وأحاسيسه، لا بطريقة تجريدية ونظرية أو بصورة طرح معادلات فكرية جافة))^(٣). ويسوق العاملي مثلاً آخرًا، ليزيد الأمر وضوحاً، حيث تحدث عن لغة سورة الفاتحة إذ يقول: يريد الله تعالى هنا في هذه السورة أن يطرح قضية التوحيد من موقع التعريف بصفاته تعالى، والإحساس المباشر بآثار تلك الصفات، ثم يوجه هذا الإنسان للإحساس بمدى تأثيره تعالى في كل جهات الحياة، وفي جميع مفرداتها، وفي كل الموجودات في الكون الرحيب، مع الحرص الأكيد على أن يخرج عن أن يبقى مجرد أمر تصوري، تجريدي ونظري، ليصبح شأنًا حياتياً حياً مؤثراً، يفهمه الإنسان ويلتمسه بوجدانه، ويتحسس بمشاعره، من خلال إحساسه بالنعمة الغامرة، وبالعطاء، وبآثار الرحمة، والعلم، والغفران، والحكمة الإلهية، وغير ذلك من صفاته تعالى. التي يتلمس الإنسان آثارها في كل آن على مدار اللحظات، وفي كل الموجودات^(٤).

الثانية : لغة القرآن لغة الإيحاء والسميائية: يقول السيد العاملي: للغة تأثيرها القوي، فاللغة العربية تحتزن في داخلها طاقة تعبيرية كبيرة، وكماً كبيراً من الإشارات والإيحاءات، وهذا من شأنه أن يترك أثراً متنوعاً على نفسيات، ومشاعر، وانفعالات، ووجدان الناس، وعلى مفاهيمهم، وتربية ذهنياتهم، وإحداث ارتكازات لاشعورية لهم، وترويض وتدجين السمع والقلب على أمور ذات طابع معين. هذا بالإضافة الى دورها الايجابي في رفع مستوى الإنسان، والترقي بفكره، وبمفاهيمه، وبمشاعره الى مستويات عالية ومرموقة، ثم شحن وجدانه بقيم ومثل

علياً، ما أشد حاجته إليها في حياته، وفي مواقفه^(٥). فالسيد العاملي ينظر للغة القرآن بأنها لغة إشارات، وإيحاءات، وهي تحاول الرقي بفكر الإنسان لاستيعاب هذه الإيحاءات، والمفاهيم، والإفادة منها في حياته اليومية ومواقفه، ففحوى حديث السيد العاملي أن الإنسان عليه أن يتمعن في لغة القرآن، ويحاول أن يطبق ما ذكره القرآن في حياته العملية، فينال ما يناله الأبرار في الجنة. ويضرب السيد العاملي مثلاً يفهمنا من خلاله المعنى الذي ذكره، ويعبر به عن جماليات التعبير، والتصوير، والإيحاء القرآني، وهو قوله تعالى في جزاء الأبرار: { وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا } ﴿الإنسان: ١٩﴾ يقول: إن اختيار تشبيه الولدان باللؤلؤ، لعله من أجل الإلماح الى عدة أمور تكون فيه، هي :-

١. صفاء اللؤلؤ ٢. شراقه ورونقه ٣. شفافيته ٤. تلالؤ وتشعشع غير عادي
٥. البريق ، وانعكاس النور ٦. الجمال ٧. الظهور ٨. الانتشار ٩. التوهج الذي يعني أن يكون في الولدان حيوية وشباب، وفتوة، وطراوة، وتوهج^(٦).
أن صفات اللؤلؤ هذه، إضافة الى الوصف الذي وصفه به القرآن (منثوراً) جعلت من العاملي يرسم لنا صورة في غاية الروعة والجمال، تعبر بدقة عجيبة عن حال الولدان وحركتهم في الجنة، وتعبّر عن خيال مفسرنا في تصور هذه الصورة الرائعة، التي رسمها بالكلمات الدقيقة الموحية التي أضافت عنصر الحركة لهذه الصورة، فهو يقول :

أولاً : ((إذا تعددت حبات اللؤلؤ المجتمعة، في مجال واحد، وتحركت في اتجاهات مختلفة، فإن تشعشعها، ولمعانها، وانعكاسات نورها، سوف تزداد ظهوراً، وتتداخل بصورة رائعة وهذا هو حال الولدان المخلدين في الجنة الذين يكونون في حركة دائمة، وهم يطوفون على الأبرار))^(٧).

ثانياً : إن اللؤلؤ قد يكون منشوراً، وقد يكون منظوماً في خيط، ولا يمكن نظم اللؤلؤ إلا بعد ثقبه والمنظوم من اللؤلؤ أقل صفاء، وإشراقاً، ولمعاناً، وتلؤلؤاً من غير المنظوم^(٨).

بالإضافة الى أنه حين ينظم، فسوف يوجب ذلك حصر جانب من أشعته، وتوجيه تلالؤه في جهات معينة بحسب ما يوجهه اتجاه الخيط الذي نظمت فيه. وهذا بخلاف اللؤلؤ المنشور، فإنه يمكن أن يتحرك في كل اتجاه، وإشراقه، ولمعانه، وصفائه أكثر^(٩)، إضافة الى ((أن انتشار اللؤلؤ نفسه، يزيد من درجة تشعشعه، لاسيما حين تكون الحركة في مختلف الاتجاهات، لأن النور إذا جاء من زوايا مختلفة، ووقع بعضه على بعض فان انعكاساته سوف تختلف بحسب اختلاف تلك الزوايا))^(١٠). ثم يعقد السيد العاملي مقارنة بين صورة الولدان وصورة الحور عين في قوله تعالى: {وَحُورٌ عَيْنٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} {الواقعة: ٢٢، ٢٣} فقد وصف القران الحور عين باللؤلؤ المكنون، ووصف الولدان باللؤلؤ المنشور يقول: ((لعل السبب في ذلك: أن المطلوب في الحور العين هو الستر، والخدر، والاختصاص، والحرص، والكمون، والحفظ. أما بالنسبة للولدان فالمطلوب هو الحضور، والظهور، والانتشار، والحركة، والانتقال، والكثرة، والتفرق^(١١)

الثالثة : لغة القرآن لغة الحقيقة والمجاز: لا خلاف في أن القران يشتمل على الحقائق، وهي كل كلام بقي على موضوعه كآيات الناطقة ظواهرها بوجود الله تعالى وتوحيده، وتنزيهه، والداعية الى أسمائه وصفاته، وغير ذلك^(١٢)، كقوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} {الحشر: ٢٢} وقوله: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} {الواقعة: ٦٨} وقوله: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} {النمل: ٦٢}

أما المجاز - الذي فرقه ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) عن الحقيقة فقال: الحقيقة هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة، والمجاز هو ما أريد به غير

المعنى الموضوع له في أصل اللغة^(١٣) - فقد اختلف في وقوعه في القرآن والجمهور متفقون الوقوع، وأنكره جماعة منهم علماء الظاهرية كداود الظاهري (ت. ٢٧٠ هـ)^(١٤) وابنه، وابن القاص من الشافعية (ت. ٥٣٣٥ هـ)^(١٥)، وابن خوزيمنداد (٥٣٩٠ هـ)^(١٦) من المالكية وغيرهم^(١٧)، وشبهتهم في ذلك^(١٨) :
أ. إن المجاز أخو الكذب.

ب. إن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة الى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وهذا دليل على ضعف المقدرة اللغوية للمتكلم، وهذه الشبهة باطلة لعدة أمور:-
١. إن الكذب والعجز محال على الله^(١٩).

٢. إن البلغاء متفقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ولو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد، والحذف، والتشبيه وغيره، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن^(٢٠).

٣. إن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وفيه ما في لغة العرب من المجازات والاستعارات في أجمل نظم، فالمجاز ليس كذباً^(٢١)، قال ابن قتيبة (ت. ٥٢٧٦ هـ): ((لو كان المجاز كذباً ... كان أكثر كلامنا فاسداً، لأننا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر. وتقول: كان هذا الفعل منك، في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن إنما كون ... والله تعالى يقول: {فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ} ﴿محمد: ٢١﴾ وإنما يعزم عليه))^(٢٢)، وقال في موضع آخر أن العرب إذا أرادت تعظيم فقدان رجل عظيم، قالت: ((أظلمت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الريح، والبرق، والسماء، والأرض يريدون المبالغة في وصف المصيبة، وأنها قد شملت وعمت. وليس ذلك بكذب، لأنهم جميعاً متواطئون عليه، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه ... ونيتهم في قولهم أظلمت الشمس: أي كادت تظلم، وكسف القمر، أي كاد يكسف ... وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بكاد))

فما لم يأتي بـ(كاد) ففيه إضمارها، كقوله تعالى: { وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ } {الأحزاب: ١٠} أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلق) (٢٣).

٤. إن المجاز مبني على التأويل، والكذب ليس كذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن المجاز له قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، والكذب ليس كذلك (٢٤).

٥. إنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة، وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، نحو قوله تعالى: { وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ } {يوسف: ٨٢}

إن في هذا القول المعاني الثلاثة، أما الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله . وأما التشبيه فلأنه شُبِّهت بمن يصح سؤاله لما كان بها ومؤلفاً لها. أما التوكيد فلأنه في ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال (على من) ليس من عاداته الإجابة (٢٥). وإذا ما عرجنا على السيد العاملي نجد أنه يرى المجازات، والاستعارات، والكنائيات من الضرورات في لغة القرآن، بخاصة في الآيات التي ظهر فيها تجسيم الله سبحانه وتعالى، نحو قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } {طه: ٥} وقوله: { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } {الفتح: ١٠}، وغير ذلك مما يوهم التجسيم الإلهي. فالمجاز عند السيد العاملي باب من أبواب التأويل، ودليل على بطلان ما ذهب إليه المجسمة، ومن أراد استغلال هذا الأمر في تشويه الدين وأهله، يقول: ((بأن ثمة حاجة ماسة لاستعمال القرآن لأنواع المجازات، والكنائيات، والاستعارات، والاستفادة من كل طاقات اللغة العربية في تحميل المعاني، بأي نحو من أنحاء التحمل. والذي يفرض ذلك: عظمة، ودقة، وكثرة المعاني، وخصوصيات، وامتدادها على مساحات الأجيال والأمم، واستيعابها لحاجاتها ومعارفها، وكل ما يعينها الى يوم القيامة . وهذه المجازات والاستعارات قد وردت في كلام الله تعالى هنا في هذه الأمثلة الواردة ... وقد اعتمد فيها على القرائن الظاهرة، على الدليل العقلي القاطع المزيل لأية شبهة، وعلى التصريح القرآني بما يدل على نفي التجسيم)) (٢٦). ويذكر السيد العاملي الهدف من استعمال القرآن للمجاز وغيره، بأن الله سبحانه وتعالى يريد أن

يسمو بإفهام الناس إلى مراتب تعينهم على نيل المعاني الدقيقة والراقية، فكانت هذه الآيات مفتاحاً لأبواب المعرفة أمام الناس، ولإيقافهم على هذه الحقيقة. والذي يسمح بذلك وجود ما يوجب الأمان من أي خلل، أو خطأ في الفهم^(٢٧). ويؤكد العاملي فيقول: ((ولعله تعالى كان يريد أن يجعل ذلك ذريعة لتصحيح عقيدة الناس، وإبعاد شبح التجسيم عنها))^(٢٨)

الخامسة : لغة القران وتعدد لحن الخطاب بما يقتضيه المقام : يلاحظ السيد العاملي تعدد الحان الخطاب الإلهي في لغة التنزيل فخطاب الله تعالى مثلاً مع الأنبياء يختلف عن غيرهم، يقول: ((يلاحظ: أن لحن الخطاب الإلهي مع أنبيائه وأوليائه يمتاز بالقوة وبالحمس أحياناً، بل هو قد يوحي أو يوهم أنه يتهددهم بصورة قوية وقاسية: حتى يقول الله تعالى لنبيه: { لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين } الزمر: ٦٥، ويقول: { ولو تقول علينا بعض الأقاويل ❖ لأخذنا منه باليمين ❖ ثم لقطعنا منه الوتين } الحاقة: ٤٤- ٤٦ ❖، ويقول: { ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا كيلاً } الإسراء: ٨٦))^(٢٩). لكن خطاب القوة والحمس ليس مستمر في جميع القران فهناك مواضع تظهر فيها اللطف والرافة الإلهية في الخطاب مع أنبيائه يقول: ((كما أنه يخاطبهم في أحيان كثيرة بمنتهى اللطف والرافة))^(٣٠). ثم يقف العاملي ليوضح الفرق في خطاب الله تعالى مع أنبيائه عن خطابه مع عباده المذنبين ، فخطابه مع الفريق الأخير يتسم بالتدرج في الرحمة الإلهية، من اللين واللطف الى الترغيب بالتوبة، ثم الوعد بالمغفرة ، يقول السيد العاملي: ((لكنه حين يخاطب عباده الخطائين فإن يتألفهم، ويداريهم، ويهون عليهم الأمور، ويخاطبهم بلين ولطف، فيقول: { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ } الزمر: ٥٣. ثم هو يرغبهم بالتوبة، ويعددهم المغفرة { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ } طه: ٨٢، { تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا } التحريم: ٨، وغير ذلك))^(٣١).

ثم يعلل السيد العاملي اختلاف لحن الخطاب بين الفريقين، ويرجعه لأمرين:-

١. إن الله تعالى يخاطب الأنبياء والأولياء من موقع الإلهية لأنهم في معرفتهم بالله ، وفي حصانتهم ضد نزعات الهوى، قد وصلوا الى مراتب سامية من الصفاء، والنقاء، والوعي، تؤهلهم لنيل الحقائق، والتفاعل معها. وهذا ما جعل الخطاب معهم خطاباً بالحقائق ذاتها على ما هي عليه، لأنهم أصبحوا فوق مستوى البشر العاديين.

٢. إن البشر العاديين وبسبب بعدهم عن الحقائق، وعدم قدرتهم على إدراكها، فهم يحتاجون إلى الخطاب بلغة تستعير مفرداتها من ما ألفوه في هذه الدنيا وحالاتها، لأنهم منغمسون فيها، فيحتاجون الى المزيد من الرعاية لهم، وتولي أمورهم، والإشفاق عليهم .

٣. إن الله تعالى لا يريد أن يشير الى أي احتمال لصدور الأخطاء من الأنبياء، بل هو مبالغ في زجر غيرهم، فهو تعالى يريد أن يطلق القاعدة، ويعلن شمولها وسيرانها الذي لا يقبل التخصيص، فقوله تعالى: {لَنْ أَسْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ} {الزمر: ٦٥} فإنه لا يمكن أن يصدر الشرك منه (ﷺ) ولكن المقصود هو التأكيد على القاعدة والضابطة، وسريانها وعمومها بأوضح بيان، وأجلى برهان (٣٢).

٤. إن الله في خطابه مع أنبياءه التي تأتي قوية وحاسمة إشارة عملية الى أن المعاملة الإلهية للبشر، لا تتميز فيها، فهو لا يغض الطرف عن رُسله وأنبيائه، لمجرد أن لهم منزلة عنده، فإن منزلتهم إنما نالوها عن جدارة، واستحقاق، تجلوا في التزامهم بأوامره ونواهيه التي قد تزيد صعوبتها بالنسبة اليهم عنها بالنسبة لغيرهم (٣٣).

الرابعة :- بدايات اللغة وتوسع دلالة مفرداتها

يتحدث السيد العاملي عن بدايات وضع الناس لمفردات اللغة ، وكيف أن هذه الألفاظ كانت تعبر عن دلالة حسية في بداية الأمر ، ثم أخذت دلالة هذه الألفاظ بالتوسع لتعبر عن المعاني المرادة بأكثر دقة ، وذلك بواسطة المجازات ، والكتابات ، والجري ، والانطباق ، والاستعارات ، والنحت ، يقول : إن ((لغة القرآن هي العربية

التي وضع الناس مفرداتها للدلالة على أمور حسية في بداية الأمر ، ثم وضعوا ألفاظا للدلالة على المعاني القريبة من الحس . وهي التي يتلمسون آثارها ويحسون بها. ثم بدءوا يتوسعون في استعمالاتهم لها إلى ما هو أبعد وأدق ، وذلك بواسطة المجازات ، والكنيات ، والجري ، والانطباق ، والاستعارات ، وبواسطة تركيب الألفاظ بطريقة معينة ، لتدل على المعاني المطلوبة) (٣٤).

يلمح من كلام السيد أنه مزج بين نظريتين من نظريات نشأة اللغة هما: -

- نظرية الاصطلاح التي تنص أن اللغة اصطلاح ، وتوضع يتم بين أفراد المجتمع ، وذلك بقوله : ((إن لغة القرآن هي العربية التي وضع الناس مفرداتها للدلالة على أمور حسية في بداية الأمر)). يذكر ابن جني (ت ٣٩٢هـ) أن أكثر أهل النظر يذهب إلى أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح (٣٥).

- نظرية المحاكاة التي تذهب إلى أن اللغة نشأة عن محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة المحيطة به ، وذلك عندما قال: ((ثم وضعوا ألفاظا للدلالة على المعاني القريبة من الحس. وهي التي يلمسون آثارها ويحسون بها)) بمعنى أنها تدرك بحاسة السمع. وأقدم إشارة لهذه النظرية نقلها ابن جني عن الخليل ، قال: ((قال الخليل كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً ، فقالوا : صرّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً ، فقالوا: صر صر)) (٣٦).

وذكر أيضا: ((ذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو الأصوات المسموعات كدوي الرياح ، وحين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك في ما بعد)) (٣٧).

لكن نقول إنه ليس كل الألفاظ في اللغة انعكاسات للمحسوسات (المسموعات) هذا من جانب ، ومن جانب آخر ليس كل اللغة هي تواضع ، فالتواضع موجود ، ونلاحظه في الوقت الحاضر بوضع مصطلحات الأجهزة الكهربائية ، والالكترونية ،

، والمصطلحات السياسية والعسكرية، والاجتماعية، وغيرها بحسب مستجدات الحياة ومتطلباتها. ونقول إن الإنسان خلق ومعه خلقت اللغة، فسيدينا آدم ولد ناطقاً بدليل قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ❖ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ❖ قَالِي آدَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} ❖ البقرة: ٣-٣٣، وقال تعالى: {فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} ❖ البقرة: ٣٧، وقوله: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى} ❖ طه: ١٢٠، وقوله: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} ❖ الأعراف: ٢٣} فمما تقدم يدل على أن سيدينا آدم قد استعمل اللغة فكان يخاطب الله عز وجل ويدعوه، وكان يتحدث مع زوجته حواء، وكان يتحدث مع الملائكة ومنهم إبليس، فهذا يعني إن لغة الإنس والجن مشتركة على الأقل في الجنة، وربما في الدنيا أيضاً على قرار قوله عز وجل: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنْ أَسْمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} ❖ الجن: ١، كل ذلك يقودنا إلى أن اللغة هبة من الله سبحانه عز وجل، أما نظرية المحاكاة، ونظرية التواضع هي روافد مكملة للغة الأم، أو طرق لاتساعها.

وإذ ما عدنا إلى السيد العاملي فأننا نجد كلامه السابق قد ذكره عند ما فسر قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} ❖ الفاتحة: ٤، وأجاب عن سؤال من يسأل: إنه إذا كان اليوم هو مجموع الليل والنهار، وإذا كانت الشمس يوم القيامة سوف تكور (أي يذهب ضوءها) ولا يبقى ليل ولا نهار، فأى معنى يبقى لكلمة (يوم) فقوله: {يَوْمِ الدِّينِ} قال: ((إنك لحادث زمني يبقى زمانياً سواء في الدنيا أو في الآخرة. والمراد باليوم هو القطعة من الزمان "ولا يجب أن يشتمل الزمان على ليل ونهار" وقد تكون القطعة طويلة وقصيرة، قال تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ {المعارج:٤} ، وقال: {وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} {الحج:٤٧} واليوم الذي فيه الليل والنهار هو اليوم الدنيوي ((٣٨)).

ثم يستدرك السيد العاملي فيقول: ((بل إننا حتى في اليوم الدنيوي نجد أماكن يكون فيها الليل بمقدار ستة أشهر ، بل قد يقال: إن بعض الأماكن لا تغيب عنها الشمس أبداً ، أو تغيب عنها بمقدار ساعة واحدة مثلاً ، فإذا أراد سكان تلك البلاد أن يمارسوا عباداتهم من صوم وصلاة مثلاً ، فإن عليهم أن يراقبوا حالة أقرب البلاد إليهم ، ويعملون على هذا الأساس)) (٣٩).

ثم يعود السيد العاملي فيؤكد أن استعمال يوم هو استعمال مجازي في هذه الآية الكريمة، إذ قال: إن استعمال كلمة يوم في القطعة من الزمن الممتد ، الذي لا يشتمل على ليل ، ولا على نهار لا غضاضة فيه. وهو اللغة (المفردة) التي يمكن أن تستخدم لتعريف الناس بحقيقة ما يجري في تلك البرهة الحاسمة من تاريخ الإنسان الذي يقدم عليه (٤٠).

نتائج البحث :

١. اختلف العلماء في وقوع المجاز في لغة القرآن، والجمهور متفقون على وقوعه.
٢. يرى العاملي ان المجازات، والاستعارات، والكنائيات من الضرورات في لغة القرآن، بخاصة في الآيات التي تجسم الله.
٣. يذكر العاملي أن اللغة العربية تحتزن في داخلها طاقة تعبيرية كبيرة، ويجب الاستفادة من جميع طاقات اللغة في تحميل المعاني، بأي نحو من أنحاء التحميل.
٤. يختلف لحن الخطاب في القرآن باختلاف المقام، فخطاب الله للأنبياء مختلف تماماً عن خطابه لعامة الناس، وبخاصة المذنبين.

المصادر والمراجع :

١. الاتقان في علوم القرآن :جلال الدين السيوطي(ت٥٩١١)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .

٢. إسرائيل (في آيات سورة بني إسرائيل): السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت- لبنان، ط١/١٤٣٣-٢٠١٢م.
٣. البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بن الدين الزركشي (ت ٥٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم، ط١/١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
٤. البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط١٠/٢٠٠٥.
٥. البيان في ضوء أساليب القرآن : د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف .
٦. تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق : ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
٧. تفسير سورة الفاتحة: السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت لبنان، ط ٢/١٤٢٠-١٩٩٩م .
٨. تفسير سورة هل أتى: السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، بيروت لبنان ط١/١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م .
٩. الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للقاهرة، ط ٥/٢٠١١م .
١٠. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن فرحون برهان اليعمري (ت ٥٧٩٩هـ)، تحقيق: د. محمد الأحمد، دار التراث، القاهرة .
١١. جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة): نجم الدين بن الأثير (ت ٥٧٣٧هـ)، تحقيق، د. محمد زغلول، منشأة المعارف / الإسكندرية، ٢٠٠٩
١٢. سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قايماز الذهبي (ت ٥٧٤٨هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ٣ / ١٤٠٥-١٩٨٥م .
١٣. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن محمد بن سالم مخلوف (ت ١٣٦٠هـ) تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
١٤. المثل السائر: ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٥. هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين: إسماعيل محمد أمين البغدادي(ت١٣٩٩هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان .
١٦. وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان الإربلي(ت٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار حادر، بيروت، ط١/١٩٩٤
- هوامش البحث :**

- (١) تفسير سورة الفاتحة، سيد جعفر العاملي: ٥٧
- (٢) المصدر والصفحة نفسها
- (٣) المصدر السابق : ٥٨
- (٤) ينظر والصفحة نفسها
- (٥) ينظر تفسير سورة هل أتى، سيد جعفر العاملي: ١٨١٢
- (٦) ينظر المصدر السابق: ١٨٨٠/٢
- (٧) المصدر السابق: ١٨٩٢
- (٨) ينظر المصدر السابق : ١٨٩٢
- (٩) ينظر المصدر السابق: ١٨٩٢-١٩٠
- (١٠) المصدر السابق: ١٩٠/٢
- (١١) المصدر السابق: ١٩٠ / ٢
- (١٢) ينظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي : ٢ / ٢٥٤ ، الإتيان في علوم القرآن، السيوطي : ٣ / ١٢٠
- (١٣) ينظر المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير: ١ / ٥٧، ١ / ٧٤
- أذن فالمجاز عكس الحقيقة، والحقيقة مشتقة من الحق، والحق في اللغة هو الثابت.
- ينظر: جواهر الكنز، نجم الدين بن الأثير : ٥١
- (١٤) داود الظاهري: أبو سليمان بن علي بن خلف الأصبهاني الإمام المشهور المعروف بالظاهري، كان زاهداً، كثير الورع، أخذ العلم عن إسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهما، وكان من أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعي، وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان صاحب مذهب مستقل، وتبعه جمع كثير يعرفون بالظاهرية،

- وكان ولده أبو بكر محمد على مذهبه. انتهت إليه رئاسة العلم ببغداد. ينظر وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢٥٥/٢
- (١٥) ابن القاص : احمد بن أبي احمد المعروف بابن القاص الطبري الشافعي البغدادي، ولي قضاء طرسوس ومات بها. من تصانيفه أدب القاضي على مذهب الشافعي، التلخيص في الفروع، وغيرها. ينظر سير أعلام النبلاء، الذهبي: ٣٦/١٥، هدية العارفين: ٦١/١
- (١٦) خوزين منداد: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن خوزين منداد الإمام العالم المتكلم الفقيه الأصولي أخذ عن أبي بكر الأبهري وغيره، ألف كتاباً كبيراً في الخلاف، وكتاباً في أصول الفقه، وكتاباً في أحكام القرآن. ينظر: الدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون: ٤٣/١، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، مخلوف: ١٥٤/١
- (١٧) ينظر البرهان : ٢٥٥١٢، الإتيان : ١٢٠/٣
- (١٨) ينظر المصدران السابقان
- (١٩) ينظر المصدران السابقان
- (٢٠) ينظر المصدران السابقان
- (٢١) ينظر البيان في ضوء أساليب القران، د. عبد الفتاح لاشين : ١٣٨
- (٢٢) تأويل مشكل القران، ابن قتيبة : ٨٥-٨٦
- (٢٣) المصدر السابق: ١٠٧-١٠٩
- (٢٤) ينظر البلاغة فنونها وأفتانها، د. فاضل عباس : ١٣٧
- (٢٥) ينظر الخصائص، ابن جني: ٤٤٩ ١٢
- (٢٦) إسرائيل، سيد جعفر العاملي: ٢٠١-٢٠٢
- (٢٧) ينظر المصدر السابق : ٢٠٢
- (٢٨) الصدر السابق : ٢٠٢
- (٢٩) تفسير سورة هل أتى : ٢ / ٢٨٥
- (٣٠) المصدر والصفحة نفسها

- (٣١) المصدر السابق : ٢٨٥-٢٨٦
(٣٢) ينظر المصدر السابق : ٢٨٧١٢
(٣٣) نظير المصدر السابق : ٢٩١١٢
(٣٤) تفسير سورة الفاتحة: ١٠١
(٣٥) ينظر الخصائص: ٤٠/١
(٣٦) المصدر السابق: ١٥٢ / ٢
(٣٧) المصدر السابق: ٤٧-٤٨
(٣٨) تفسير سورة الفاتحة: ١٠٠
(٣٩) المصدر السابق: ١٠٠-١٠١
(٤٠) ينظر المصدر السابق: ١٠٠-١٠١

Abstract :

The holy Quran represents the immortal miracle of the prophet .It is the miracle of different levels. One of these levels is the linguistic miracle. Which Arabs failed to keep it up in spite of their communiqué and statement. Ln our research, we try to shed the light on the language of Quran from the perspective of al-Amili. how this great scientist explains that language, how almighty Alla addressed the human according to his life and out of the philosophical and mathematical theories, and how the melodies were different depending on the addressee and the situation.